الترجمة والتصرف

(دراسة في أيديولوجية الترجمة)

translation and acting

(A study in the ideology of translation)

محمد رحيمي خويگاني

جامعة أصفهان، إيران.

تاريخ الإرسال:2021\01\13	تاريخ القبول:2021\05\06	تاريخ النشر: جويلية 2021

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مسألة التصرف الترجمي الذي اعتلى منصة الظهور بعد طرح مسائل ثقافية في الترجمة على أيدي باحثين كبار كلوفيفر وباسنت وآخرين.

أهم نتائج هذه الدراسة يبين أن التصرف الترجمي واقعية عملية لايمكننا التغافل عنها لأنها كانت موجودة في النصوص الترجمية القديمة ولانزال نشاهدها في النصوص المترجمة المعاصرة، إن هذه الواقعية تخالف الكثير مما تعودنا على تكراره من مباحث الترجمة الوفية في صفوف المترجمين.

الكلمات الدالة: الترجمة، التصرف، الأيديولوجيا، الثقافة

Abstract

This study aims to shed light on the issue of translational behavior that rose to the emergence platform after raising cultural issues in translation at the hands of senior researchers Cluvifer, Bassant and others.

The most important results of this study show that the translational behavior is a practical reality that we cannot ignore because it was present in the ancient translation texts and we still see it in the contemporary translated texts.

Key words: translation, behavior, ideology, culture

مقدمة

لاشك أن كلّ من يلعب دور المرسل في عملية التخاطب يتأثر ـ ولو بشكل لاوعي ـ بما لديه من المعتقدات والخلفيات الذهنية ولا يتوفر له الانعزال عمّا يُملي عليه المجتمع الذي يعيشه، بعبارة أخرى أنّ كلّ نصّ مكتوب أو محاضرة مسموعة أو صورة مرئية، بوصفها أنواعا للخطاب المعاصر، ينشعب من مصدر المرسل الأيديولوجي ويصطبغ بصبغته الاعتقادية الخاصة ولعلّه لا يمكن لأحدٍ الفرار من أيديولوجياته ومعتقداته ولو جاهد وأضمر، وما أحسن ما قاله علي بن أبي طالب: «مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»! (نهج البلاغة، الحكمة 26).

يهدف هذا البحث إلى بيان أنّ المترجم ـ كسائر الدارسين ـ لا يستطيع أن يفرّ من معتقداته وأيديولوجياته ومكوّنات شاكلته الاجتماعية والعلمية والسياسية و... ولو نُملي عليه ونكرّر له ما تعوّدنا على تكراره في صفوف المترجمين. هذه هي الاعتقادات التي تجعل من عملية الترجمة عملية غامضة تقترب من النص المبدأ أحيانا وتبتعد عنها أحيانا أخرى. ينظر الكثير من المنظرين في حقل الترجمة إلى التصرف كعنصر متأصل في الخطاب الترجمي كما ينظرون إلى الأمانة من منظور جديد يتفاوت عما نعلم غالبا.

يقدّم هذا البحث عرضا مختصرا لنظريات الترجمة الحديثة بعد تقسيم جديد لها ينبني على أصل التصرف الترجمي ويبيّن كيفية تسرّب التدخّل والتصرّف إلى مباحث الترجمة ويستشهد بأمثلة تطبيقية للتصرف في النصوص المترجمة.

تأسّس البحث الحاضر على مقارنة وصفية تحليلية بين المثالية النظرية التي ننتظرها من عملية الترجمة ـ وتتجلّى في نظريات الأمانة ـ والواقع الترجمي الذي نشاهده عند المترجمين ـ وتتجلى في نظريات التصرف ـ ويبحث عن أجوبة لعدّة تساؤلات منها:

- ما مكانة ثقافة اللغة المقصد من نظريات الترجمة؟
- أين يقع التصرف من النظريات الترجمية؟

الدراسات السابقة

فيما يخصُّ بسابقة البحث علي أن أشير إلى بعض الدراسات على الشكل التالي:

- مقالة «التصرف الأيديولوجي في الترجمة مصطلحاً ومفهوماً»، للباحث فرغل، محمد، طبعت هذه المقالة في العدد الثالث لمجلة نقد وتنوير بالكويت، سنة 2015م، عالجت هذه المقالة تأثير الأيديولوجيا على ترجمة النصوص السياسية والإعلانية.
- مقالة «الأمانة في نظريات الترجمة القديمة والحديثة»، لباحثها محمد رحيمي خويگاني، طبعت هذه المقالة في العدد الثالث من مجلة التراث العلمي العربي بجامعة بغداد سنة 2017م، ودرس الكاتب نظريات مختلفة في الأمانة الترجمية في التراث الإسلامي والحديث وبيّن أن مفهوم الأمانة قد تغير وتطوّر بمرور الزمن.

التصرف كمرتكز لنظريات الترجمة

لسنا بصدد تقسيم جديد لمراحل نظريات الترجمة ولكن ـ ولابدّ منه ـ ساقنا موضوع البحث إلى أن نقسّم النظريات إلى مرحلتين، مرحلة ما قبل التصرف ومرحلة ما بعد التصرف، لعلّ هذه التسمية ـ وهي الأولى بنوعها ـ تساعدنا لتحليل المبادئ النظرية المرجوة وبالتالي تطبيقها على الأمثلة المستخرجة من الأعمال الترجمية.

نظريات قبل التصرّف

قد سَبَقنا علماء الترجمة الأوروبيون في الاهتمام بنظريات الترجمة العلمية والمداقّة فيها وفي أخطارها التي تحيط بها خاصة في «ورشة الترجمة الأمريكية» «Workshop translation American» بوصفها بدايةً للاهتمام العلمي بالترجمة. ترعرع في هذه الورشة علماء كبار ك«إزرا باوند/Ezra Loomis Pound » وهو الذي يعزّز نظرية الترجمة عامة وترجمة الشعر على وجه الخصوص، باعتقاده أنه لايوجد معنى معين في أي نصّ كان، فالنصوص ـ عنده ـ كلها مفتوحة للترجمة وكلّها مجموعة من قطعات متجزّأة وليس على المترجم إلّا أن ينقل هذه الأجزاء المتجزّأة وتركّبُها مرّة أخرى تركيبا منطقيا وفق اللغة المنقول إليها (گنتزلر، 1380: 28).

تطورّت حركةُ الترجمة العلمية في القرن العشرين بمزجِها مع نظرية اللسانيات الحديثة وبظهور بدايات نظرية «علم الترجمة» لدى «يوجين نيدا/Eugene Nida» واعتماده على نظرية «شومسكي/Chomsky» التحويليّة للنحو ونظامه المرتكز على «البناء السطحي/ Surface structure» و«البناء العميق/Deep structure» (عناني، 2003م: 13). يعتقد نيدا أنّ المترجم إذا تحصّل على البناء العميق لجملات النص المبدأ وحوّلها إلى مثيلها أو مكافئها في النص المقصد فيمكن له أن يترجم كلَّ نصّ (نايدا: نقلا عن گنتزلر، 1380: 71-75) ومنه النص الشعري. اعتمد

نيدا على نظرية شومسكى التي تقدّر نواة مشتركة لكل اللغات العالمية فأبدع مصطلح «التكافؤ» «Equivalence» في الترجمة وطرح نيدا مصطلح «التكافؤ الدينامي» وعرّف الترجمة ذات التكافؤ الدينامي بـ«أنها أقرب معادل [مكافئ] لرسالة لغة المصدر» (نيدا، 1976م: 321)، ومراده أن يخلق النص الهدف نفس الأثر والتفاعل الذين نراهما حينما يقرأ المتلقي النصَ المترجم (شاهين، 2008م: 7).

دقّق «كاتفورد Catford» في مفهوم التكافؤ وبذل جهده في توسيع المعنى، واقترح في البداية أربعة أنواع من الترجمات على أساس المستويات اللغوية وهي: الصوتية والكتابية والنحوية والمعجمية مستغلا نظرية «سلَّم الدَّرجات النحوية» لـ«هاليدي» ليصل إلى نوع من التكافؤ الرياضي والتطابق الشكلي بين النصين المبدأ والهدف (كحيل، mohamedrabeea.com). والترجمة في رأيه هي «أن يجعل المترجم وحدات اللغوية ـ في النص الهدف ـ تعادل وحدات لغوية النص الأصلي» وبما أن كل نص يمكن تجزئته إلى وحدات لغوية فكل نصّ ـ ولو كان شعرا ـ يمكن ترجمته! الحق أن كاتفورد مع تقديمه نظرية التكافؤ الدينامي الرياضي ومع اعتقاده بأصل «التأثير المماثل» ولكنه عمليا لم يكن يستطيع ليبتعد عن حرفية نظريته لأنه أكّد تأكيدا شديدا على التكافؤ «في وحدات النص» الأصلية والمترجم.

يعتبر «بيتر نيومارك Peter Newmark» من أبرز أنصار النظرية اللغوية للترجمة (علم الترجمة)، يؤمن نيومارك بلغويّة الترجمة إذ يرى أنّ الكلمات هي التي تترجم ولا شيء آخر سوى الكلمات! «ونظرية الترجمة عنده لابدّ أن تحدّد المبادئ والقواعد ومختلف الأساليب المتّبعة لترجمة النصوص وكذا لنقد الترجمات، أي إن اهتمامها ينصبّ على الكشف عن الحلول لمشكلات الترجمة ويركز نيومارك على طريقتين صالحتين للترجمة في نظره، لكلّ أنواع النصوص ـ شعرا ونثرا ـ هما: الترجمة الاتصالية: يحاول المترجم عن طريقها إحداث نفس الأثر الذي يحدثه النص الأصلي في قرّائه في متلقي الترجمة ـ وهذا ما سمّاه «نيدا» بالتكافؤ الدينامي ـ. والترجمة الدلالية، يعمل وفقها المترجم على نقل الألفاظ ونحو النص الأصلي كما هي إلى لغة الترجمة» (نيومارك، نقلا عن بوحلاسة، 2012: 40). يقول نيومارك «تحاول الترجمة الاتصالية أن تترك في قرائها تأثيرا أقرب ما يكون إلى التأثير الذي يتركه الأصل في قرائه، بينما تحاول الترجمة الدلالية أن تنقل المعنى السياقي الدقيق للأصل، بقدر ما تسمحُ به الأبنية الدلالية والنحوية في اللغة الثانية، فالترجمة الاتصالية لاتخاطب سوى القارئ الذي لايتوقع أي مشكلات أو غموض، كما ينتظر أن يكون هناك نقل سخي للعناصر الأجنبية إلى ثقافته ولغته عند الضرورة، ولكن حتى في هذه الحالة يجب على المترجم أن يعمل على شكل النص الأصلي

بوصفه الأساس المادي الوحيد لعمله، أما الترجمة الدلالية فتبقى في إطار الثقافة الأصلية، ولاتعين القارئ إلا في إدراك إيحاءات تلك الثقافة حينما تكلّ تلك الإيحات الرسالة الإنسانية للنص» (2006م: 83).

أما في سبعينيات القرن التاسع عشر فأخذ يتمظهر تيّار ترجمي جديد فتح آفاقا جديدة أمام باحثي الترجمة. حينما كان الجدل فيما بين ورش الترجمة وعلمها أو نظريتها جاء منظّر بلجيكي اسمه «جيمز هولمز/James Holmes » فأزاح لفظي «نطرية» و«علم» من جانب الترجمة وأضاف إليها «دراسات» وأبدع مصطلح: «دراسات الترجمة/Translation studies» (هولمز، نقلا عن گنتزلر، 1380: 97) الذي تحبّذه العرب بصورته الوصفية «الدراسات الترجمية». فالدراسات تخرج الترجمة من نطاق لساني ضيق إلى نطاق الثقافة والخطاب. يعتقد هولمز بأن «التكافؤ» الذي تحدّث عنها نيدا لايتحقّق في ترجمة الشعر أبداً. يستند هومز في قوله هذا إلى اختلاف الترجمات المختلفة لنص واحد! ويقول إذا ترجم نفر من المترجمين نصّا واحدا فالنصوص المترجمة تختلف عن شخص إلى آخر. يرى هومز أنّ ترجمة الشعر نوع من التفسير والنقد الأدبيين ويرى مترجم الشعر في مكانة أعلى من سائر المترجمين إذ إنه يفسّر ويحلّل ويترجم ويعيد بناء النص الشعري. إذا رجعنا إلى هذه النظرية في الترجمة نرى أن هولمز بذل جهده لنقد نظرية التكافؤ ولكن عمله بات عقيما وهو نفسه أيضا عاد إلى مفهوم التكافؤ بعد أن وجّه إليه كثيرا من النقد (*المصدر نفسه*).

استمرّ تيّار دراسات الترجمة في الغرب في عصر يمكن تسميته «العصر ما قبل التفكيكية[1]» وكانت السمة الأكثر بروزا لهذا العصر هو اعتماد نظريات الترجمة على نوع من مفهوم التكافؤ! فلم يكن يتمكن هولمز أو أي دارس آخر مثل «كاتفورد Catford» من أن ينزح نفسه عن مصطلح التكافؤ وكانوا يعتمدون في نظرياتهم على هذا المصطلح والسبب يعود إلى شرطهم لـ«قصدية» الترجمة أن تكون «مكافئةً» للنص الأصلي مهما كان معنى التكافؤ عندهم.

إن الناظر في نظرية التكافؤ ونظريات الترجمة اللسانية وطرق الترجمة المتعددة، يرى بوضوح أن هذه النظريات تتبنّت على نوع من الأمانة المزدوجة أو الأمانة باللفظ والمعنى، بعبارة أخرى إن هذه النظريات سعت من وراء الحصول على نص هدفٍ يكافئ النص الأصلي في البنية واللفظ أولا وفي المعنى والتفسير والتأثير ثانية. أما الحق أن أصحاب نظرية التكافؤ لم يتمكنوا من تقديم معيار لساني أو لغوي للتكافؤ وكلما طرحوه وقدّموه ليس إلا نماذج شخصية اعترف أصحابها فيما بعد بنقصانها وعدم تطبيقيتها، يقول ماندي: (Mondey) «كيف يمكن لنصّ أن يكون له تأثير مماثل في ثقافتين

مختلفتين؟ الحق أن نظرية التكافؤ أو التعادل يلتصق بنوع من الحكم الذهني الشخصي وليس علميا» (1391: 83)، أو يقول جوليان هاوس: «إن التكافؤ في شكله الصوري، لايناسب في أكثر الأحيان مع أهداف المترجمين، يرى أصحاب التكافؤ أن النص يستوعب معنى أو بنية ثابتة يمكن للمترجم أن ينقلها ويُتمّ عملية الترجمة ولكن هذه القراءة تعارض الأصل الأساسي الذي يذهب إلى إعادة بناء المعنى من جانب المتلقي وإمكانية التفسير المتعدد، وبما أن أصحاب التكافؤ قد تفتّنوا أخيراً بهذا الأمر بدّلوا مصطلح التكافؤ بمصطلح آخر "النص القابل للفهم"، فبهذه الصورة اعترفوا بدور المتلقي . مترجماً كان أو مخاطب النص الهدف . في عملية الترجمة وإهمال النص الأصلي إلى حدّ بعيد (هاوس، 1388: 41-42).

نظريات ما بعد التصرّف

عندما خرجت الترجمة من دائرة النظريات اللسانية والتكافؤية ووطئت أرض الثقافة والأيديولوجيا أخذت تتمظهر نظريات تهمل النص المبدأ وتعطي الأصالة للنص المقصد؛ ظهرت النظريات الوظيفية (Skopos) للترجمة، في أواخر سبعينيات القرن الماضي (1970) على أيدي الباحث الإنكليزي هانس. جى. فرمير (1930-2010م) وزميلته الباحثة كاترينا رايس، في كتابهما الموسوم بـ«مبادئ لنظرية الترجمة العامة»، وأكّدا على «وظيفة النص المترجَم» في ثقافة اللغة الهدف (ماندي،1391: 154). يرى منظّرو الوظيفية أن الترجمة «فعل يقوم به شخص له هدف اتصالى معين، وهو ما أطلقت عليه رايس وفرمير مصطلح «Texts Skopos» (*المصدر نفسه*).

«ولأنّ تحقق الملاءمة في شكل الاتصال هو دائما ذو علاقة بإنجاز الهدف المقصود، لذلك تكستب الثقافة المستهدفة أهمية حاسمة» (غينتسلر، 2009م: 184)، فالوظيفيون بعبارة أخرى، يعتقدون بهذه الجملة الشهيرة «الغاية تبرّر الوسيلة» ويؤكدون على أن «قاعدة الغاية بعبارة ودون إلحاح على ترجمة واحدة متصفة بالكمال أو على إستراتيجية معينة من أي نوع؛ يطالب الوظيفيون المترجمينَ بالسعي الدائب لإيجاد أفضل الحلول في إطار الظروف الفعلية القائمة، إن في اختيار المترجمين أن يختاروا جانب الوفاء لروح النص المصدر أو إستراتيجية كلمة بكلمة، ويمكنهم أن يزيدوا أو ينقصوا أو يغيّروا المعلومة بقدر ما يرونَه مناسباً، اعتمادا على الظروف الثقافية وحاجات الجمهور أو المتسهلك (*المصدر نفسه: 185*). يركّز الوظيفيون على أصل «تكييف النص مع أهداف المترجم أو أهداف المتلقّين» ويخيّرون المترجمين بين انتخاب منهج الترجمة المناسبة للأغراض (هاوس، 1388: 33).

يبيّن أصل التكييف أن الترجمة الوفيّة ليست، إلا ما تناسب أهداف الثقافة المستهدفة، يعتقد «فرمير» بأن المترجم ليس إلا مأمورا طلب منه الوصول إلى بعض الأهداف، ونظرا لهذه الأهداف تتغير الإستراتيجيات الترجمية خلال عملية الترجمة (أحمدي، 1395: 38).

والحق أن هذه النظرية تبرّر . إذا صحّ التعبير . الكثير من التصرفات الترجمية المدعمة بالدوافع الأيديولوجية في الخطابات الأدبية أو السياسية، فمثلا إن المترجم لخطاب الرئيس المصري السابق « محمد مرسي» في مؤتمر «دول عدم الانحياز» . بطهران، 2012/8/30)، قد حرّف لفظ سوريا إلى البحرين وانتسب ما قاله مرسي إلى حكومة البحرين من أنّه حكومة ظالمة مسفكة للدماء ولابدّ لها أن ترحل، و بهذه الصورة قدّم للمتلقي الفارسي ما يلائمه ويلائم أهداف الجمهورية الإسلامية الإيرانية. ولكن . ونحن نعلم . ليس هدفه الترجمي إلا الدفاع عن أيديولوجياته الخاصة. بعبارة أخرى أن المترجم ليس خائنا بل هو أمين وفيّ، ولكن وفاءه يرتبط بالنص الهدف وثقافته ومخاطبيه. هذا وتبرّر هذه النظرية الكثير من الحذف والإضافات والتغييرات التي نشاهدها في ترجمة النصوص الأدبية أو الخطابات أو الأفلام السينمائية أو ...، مما يناسب النص الأصلي مع مخاطبي النص الهدف.

أما النظرية الأخيرة التي نعالجها فليست إلا التفكيكية ولكن قبل التطرّق إلى التفكيكية، لابدّ لنا أن نلقي الضوء على نظرية «بنجامين Walter Benjamin» في الأدب والترجمة المؤسسة على أهميّة وظيفة المترجم في مقاله «مهمّة المترجم»، فهو في مقاله هذا يقارن بين عمليّة قول الشعر وعملية الترجمة ويقول: «للشاعر نيّة آنيّة شخصية وللمترجم نيّة تقليدية نهائية نظرية! وهذه النية عظمية جدا إذ تتمحور حول دَمْجِ اللغات في لغة واحدة!» (نجوميان، 1383: 44) وبهذا القول يرتقي بمقام الترجمة إلى درجة تفوق على قول الشعر وهو أفضل أنواع الأدب. لايتوقّف بنجامين عند هذا الحدّ ويجتاز الحدود التقليدية للترجمة ويقول: «إن الترجمة هي العامل الرئيس لخلود النص الأصلي وهي التي تصونه عن التبدد والزوال وبالترجمة يدخل النص الأصلي في مرحلة البلوغ والتطور» *(المصدر نفسه: 46)* وهذه الآراء جعلت التفكيكيين فيما بعد أن ينزعوا مفهوم الأصل عن النص الأصلي الأوّلي ويفتحون آفاقا جديدة في الترجمة.

أخرجت «التفكيكيّة/ Deconstruction» نظريات الترجمة من أزمة التكرار وفتحت أمامها آفاقا فكرية جديدة تتطّلب بإلحاح أن ينسى المترجم مصطلح «الأصل» والنص الأصلي ويطرح تساؤلا عجيبا هو «ما هو قبل الأصل؟» أ هو فكرة أم شكل أم شيء آخر؟ ينظُر التفكيكيون إلى الترجمة من منظور جديد وطرحوا «فرضية تقول: إن النص الأصلي هو الذي يعتمد على الترجمة!

... ماذا إذا كان تحديد معنى نصّ ما غير محكوم بالأصل، بل بالترجمة؟ ماذا إذا كان الأصل فاقدا لأي هوية ثابتة يمكن تحديدها جماليا أو علميا ولكنه يتغير في كلّ لحظة زمنية يعبرها إلى الترجمة؟ (غينتسلر، 2009م: 345).

و على خلاف جميع النظريات التي مرّ ذكرها «نجدُ أن الفرض الذي يستقرّ أساسا لفكر دريدا هو أنّه لا وجود لبنية نواة (Kernel) أو بنية باطنة (Deep) أو لعامل ثابت يكون أساسا للمقارنة؛ إن ذلك شيء لايمكن استبانته البتة، فضلا عن إمكان تصويره أو ترجمته، أو وجود نظرية لمعالجته، وعلى العكس من ذلك يؤسّس دريدا نظريته على التقويضية وعلى عدم المطابقة وعدم الحضور وعدم القابلية للتمثيل، إن الماثل في ما يرى دريدا هو سلاسل من الدلالة تضمّ الأصل وترجماته في علاقة تكافلية تكاملية، يرفد فيها بعضها بعضا، في تحديد وإعادة تحديد» (*المصدر نفسه: 350*).

بعبارة أخرى أن الترجمة عند دريدا ليست تمثّل عملية ثانوية، مثلما كان يفعل والتر بنيامين، «يعتقد دريدا بأن اللغات ليست مفصولة بعضها عن البعض الآخر، حقا...كل ترجمة يجب أن تسعى إلى فرض غرابة النص المترجَم على المترجم إليها، فتبتعد عن ذاك قليلا لجرّه إلى هذه اللغة، وتبتعد عن هذه قليلا لجرّها إلى ذلك النص: هكذا حتى تنشأ لغة ثالثة هي أقرب إلى اللغة الكبرى المتخفية ...هذه الترجمة فعالة بالضرورة عدوانية نوعا ما» (دريدا، مقدمة المترجم، 47).

بناءً على آراء دريدا يمكننا القول: كلّ النصوص أصلية لأنّ كل ترجمة تحمل في ثناياها ملامح وميزات خاصة! لايهتمّ دريدا بمسألة إمكان الترجمة أو عدمه ويعتقد بأن المترجم إذا سعى من وراء نقل معاني النص ـ الشعرى مثلا ـ لايتمكن من هذا الأمر أبدا ولكنّه يفضّل معنى ويهمل الآخر ولكنه حين يسكب المعنى في لفظ آخر يخلق معاني جديدة لم تكن في النص الأصلي (نجوميان، 1383: 46). وأخيرا وفي مرحلة التفكيكية أو بعد اللسانية نشاهد كيف أن منظّري الترجمة يميلون إلى الغفلة عن الأصل وإعطاء القيمة الأصلية للنص الهدف!

التصرف (Manipulation) كنظرية مستقلة

لاشك أن الواقع الرئيس الموجود يخالف الكثير من الأمور التقليدية التي تعوّدنا عليها ونكرّرها في صفوف المترجمين، يقول قطّاف تمّام: «أؤكد على أن المقاربات النظرية للفعل الترجمي تسعى في معظم الأحيان إلى المثالية التي تصعب تحقيقها في أرض الواقع، لأنه ثمة ظروف تحيط بالنص والمترجم تفرض نفسها على كيفية انتهاج الأسلوب الذي سوف يتبنّاه المترجم أثناء عملة النقل، هذه الظروف تجعل من المترجم لايتمتع بالحرية التامة» (2010م: 16).

فالتصرّف مصطلح ترجمي وهو من أهمّ موضوعات يدرسها باحثو الترجمة حاليا كظاهرة ترجمية لابد لنا أن نقبلها ونعترف بها، يقول هتيم وماندي «إن التصرّف ليس إلا مزج المترجم أفكاره ومعتقداته بمعاني النص الأصلي أثناء عملية الترجمة» (1391: 170)؛ وهو ظاهرة تشكّلت إثر قبول أصل ترجمي يقول: «إذا أردنا أن نقبل التصرفات الترجمية فعلينا أن نحتسب الترجمة نوعا من إعادة الكتابة (re-wtiting) أو «التدخل» (manipulation)» (*المصدر نفسه: 500*).

قبول مسألة التصرف علميا، يعود إلى سلسلة من الجلسات أقامتها الرابطة العلمية الدولية للأدب المقارن بعد أن تأثرت بنظرية النظم المتعددة لإون زهر، ألّف أصحاب هذه الرابطة مجموعة من المقالات في كتاب سمّوه «التدخل والتصرف في الأدب، دراسات في الترجمة الأدبية» « **The Manipulation of Literature: Studies in Literary translation**» وهذه المقالات أصحبت نواة إنشاء «مكتب «التدخل والتصرف» في الأدب عامة والترجمة على وجه الخصوص، يعتقد «تئو هرمانز» «T. Hermans» في مقدمة الكتاب وتحت عنوان «دراسات الترجمة والنموذج الجديد» « translation studies and new paradigm» أنّ الترجمة على مدى الزمن . لم تكن عملية غير أصيلة فحسب بل كانت تحتلّ الرتبة الثانية بالنسبة للتأليف، ولاتزال لا تنظر إليها بعين الاهتمام، ولكن أعضاء الرابطة يعتقدون بأنّ الأدب نظام غامض متعدد الأطراف وثمة ارتباط وثيق بين الدراسات النظرية والتقابلات الدائمية التطبيقية. إن التقابل بين النظرية والتطبيق من منظور النظم المتعددة ليس إلا منهجا توصيفيا ذا قصدية منظمة» (Hermans.1985, 7-11).

يعزّز دي بوغراند (De Beaugrande) (1984) ودريسلر (Dressler) (1981) نظرية التصرف إذ احتسباه نوعا من إستراتيجيات في سبيل تحقيق الأهداف التي يطمح إليها الكاتب، يقول دي بوغراند «ينجلي النقل عندما يسعى النص إلى إعطاء وصف محايد للموقف، في حين يتجلّى التصرف عندما يسعى النص إلى توظيف الموقف لخدمة أهداف الكاتب، لذا يختار الكاتب في عملية إنتاج الخطاب إما التصرف وإما النقل في ضوء جنس النص ونزعاته الشخصية» (دي بوغراند، نقلا عن فرغل: 145). أدخل شناق (1986) مفهوم التصرف إلى جانب النقل في بيئة الترجمة وفارق بين الترجمة بوصفها النقل والترجمة بوصفها التصرف، «فذهب إلى أن المترجم وليس المؤلف من يتولّى السيطرة على هذا البعد الخطابي، فالتصرف يتجلّى حين يقرّر المترجم التدخّل الفكري في النص بينما يتجلّى النقل عندما يقدم المترجم ترجمة أمينة للنص» (المصدر نفسه).

التصرّف والقدرة

أما إذا دققّنا النظر في المسار الذي اجتازته دراسات الترجمة نشاهد بوضوح أن «مبحث التصرف» قد اعتلى منصة دراسات الترجمة كمبحث هام رئيسي ولا هامشي بعد طرح المباحث الأيديولوجية في الأدب والترجمة. ومن أهم منظري الترجمة الذي ساهم . بشكل واسع . في توسيع وتعميق نظرية التصرف هو «لوفيفر». يندرج لوفيفر في زمرة منظري نظرية النظم المتعددة ولكنه قد ارتفع بنفسه عن مقلد بحت وألّف كتاب تحت عنوان « Translation, Rewriting, and the Manilulation of Literary Fame» وعالج فيه مسائل عينيّة لقبول أثر أدبي أو رفضه في مجتمع ما، يعتقد لوفيفر أن هذه المسائل تتخلص في القدرة، الأيديولوجيا، الأنظمة الثقافية والتدخل والتصرف (1992:2)، الطريف أنه قد استشهد بترجمة فيتز جرالد لرباعيات الخيام النيشابوري لبيان كيف أن التصرف في الترجمة يؤدي أحيانا إلى قبول جماعي للترجمة (المصدر نفسه:8)، في نظر فيتز جرالد أنّ شأن الأدب الفارسي والإيرانيين أقلّ من الأدب الإنكليزي والإنكليزيين بعبارة أخرى إن القدرة الإنكليزية تعطي الخيار الأفضل واليد العليا للمترجم لأن يتصرف في النص الفارسي، تصرفا وسيعا حتى يعتليَ به إلى مستوى الأدب الإنكليزي! وبما هذه الفكرة الأيديولوجية يرى نفسه حرّا لدسّ أنواع التدخل والتصرف في النص الخيامي والنتيجة . مع احتساب البعض هذا الأمر خيانة .كانت ناجحة جدا إذ نشاهد اليوم أن رباعيات الخيام الإنكليزية قد أصبحت من أشهر النصوص في البريطانيا بعد النص المقدس وأشعار شكسبير (دهباشی، 1383: 16)، يقول صادق هدايت في هذا المضمار: «لعلّه لايوجد أثر أكثر دراسة وقراءة وأكثر نفورا وحبّا وأشد عناية واهتماما من رباعيات الخيام في العالم الإنكليزي» (1325: 9). يعتقد لوفيفر أنّ هذا النجاح لا يتولدّ إلا من قدرة فيتز جرالد على إعادة الكتابة والتصرف في النص الأصلي (1992: 8). تشير الباحثة فرحزاد إلى ثمان طرائق للتصرف في ترجمة الرباعيات: «الإضافة، الانتخاب، الحذف، التقليل، التبديل الثقافي، التغيير، الفردية وإعادة الترتيب»، وذكرت أن ما يقارب من نصف المعاني الإنكليزية ليست للخيام (فرحزاد، 2006:48-49)، فالنتيجة أن الحق مع لوفيفر إذ قال: «في كل المستويات الترجمية، إذا كان الجدل بين رعاية المسائل اللغوية والأيديولوجية، فالغالب . في أكثر الأحايين . ليس إلا الأيدولوجيا» (1992:30).

فبما أن للغة الهدف ميزاتها الثقافية والاجتماعية التي تختلف عن اللغة المبدأ فطبيعي أن نرى المترجمين دوما يرون أنفسهم أمام خيارات منوعة تدعوهم إلى أصل «الاختيار» أو «الانتخاب»،

وإذا اختار مترجم فيما بين الصور المختلفة للبيان صورة معينة وتهمل الأخرى وعندما يغيّر بعض ملامح النص الأصلي إلى ما يناسبه إلى أغراض القدرة التي تملي إليه من جانب الأركان السياسية أو الأيديولوجية في اللغة الهدف، فليس هذا الاختيار اعتباطيا كما ليس التغيير عشوائيا، بل هما تسرّبا إلى الترجمة عامدا والحق أنّ المعاملة مع هذه التغييرات بوصفها «خطأ ترجمي» أو «خيانة ترجمية» ليست إلا التغافل عن أرضية خصبة للدراسة والنقد والابتعاد عمّا يعترف به علماء الترجمة أنحاء العالم اليوم.

يقول غينتسلر وتيموكزكو: «أنّ . في الترجمة . القدرة الأيديولوجية الغالبة تطرد الثقافات والأيديولوجيات الضعيفة ...فالترجمة ليست خلافا للقراءة المعتادة عنها . عملية وفية بحتة بل هي عملية فاعلة عامدة تشمل أنواع الخيارات، التجميع، الحذف، الحظر وإعادة التركيب والتنظيم، التزوير، الانتحال، التحريف وما إلى ذلك» (1392: 28-29).

التصرف والمنظور الثقافي

في استمرار نظريات تهتم بتصرفية الترجمة نشاهد «أمبرتو إيكو» الباحث الإيطالي إذ خصّ كتابا لبيان هذا الغرض بعنوان «أن نقول الشيء نفسه تقريبا» ويبيّن كيف أنّ الترجمة مهما تُروعي فيها شروط مختلفة ليست نفس الشيء . والمراد من الشيء النص الأصلي . بل هي نفس الشيء تقريبا، يقول هو عن محتويات كتابه «هذا هو معنى الفصول اللاحقة: أن نفهم كيف يمكن بالرغم من إدراك كوننا لا نقول أبدا الشيء نفسه، أن نقول الشيء نفسه تقريبا، لاتكمن المشكلة هنا في الشيء نفسه ولا في الشيء، إنما في «تقريبا» وما هو مدى مرونة هذا ال «التقريبا»؟» (إيكو، 2012: 15). كما يظهر من قول إيكو أن الترجمة كانت ولاتزال «نفس الشيء تقريبا» ولا ولن تكون نفس الشيء كاملا، فقبول هذا الأمر يمكّننا من قبول أنّ التدخلات الترجمية من جانب المترجم كإنسان له معتقداته وأهدافه وأغراضه تخالف شروط الوفاء ولكن توافق شروط الاختيار الإنساني والاجتماعي. يبدو أنّ المترجمين بعد أن طردوا الترجمة الحرفية ومالوا إلى الترجمة المعنوية أو المفهومية، تقبلوا ورضوا . ولو بشكل لاوعي . بنوع من التصرف الترجمي. ينتقد إيكو ما ذهب إليه دعاة الترجمة الحرفية ويحتسبهم أفرادا لم يكن عندهم استقلال الرأي ويتمثل بقول «مارتين لوتر كينغ» في مقدمة ترجمته للإنجيل بالألمانية، ذيل جملة «Ex abundantia cordis os loquitur» ما ترجمته: «لو كان عليّ أن أتّبع هولاء الحمير، لوضعوا أمامي الحروف ولترجموا هكذا: من وفرة القلب يتحدث الفم»، قل لي هل هذا كلام بالألمانية؟ من هو الألماني الذي سيفهم هذا؟ ما هي

وفرة القلب؟ ولكن الأم في البيت ورجل الشارع يقولان: يخرج من الفم ما يفيض من القلب» (المصدر نفسه: 215»، إذن علينا أن ننظر إلى وظيفة الترجمة في اللغة الهدف وثقافتها وإذا نظرنا إلى هذه الوظيفة نشاهد أن «تصبح الترجمة مسألة داخلية في تاريخ تلك الثقافة وكل المسائل اللغوية والثقافية التي يطرحها الأصل تصبح عديمة الأهمية!». ينصع من هذه الأقوال أنّ «التغيير» في الترجمة أمر بديهي يتعلق أحيانا بالجانب الثقافي للغة المقصد . بعبارة أخرى أنّ الثقافة المقصد تملي على المترجم نوع التغيير وميزاته وكيفيته.

لتبيان الأمر نذكر بعض الأمثلة من تراث الترجمة الفارسية القديمة، فالجدير بالذكر أنه يلتصق مفهوم الترجمة عند المترجمين الفرس الكبار بنوع من التزيين والزخرفة والتحلّي الذي يلاءم الأدب الفارسي المزيّن والثقافة الفارسية المحبّة لأنواع التزيين والزخرفة، فلنبدأ بنصر الله المنشي (المقتول583ق)، يقول هو في مقدمة ترجمته لـ«كليلة ودمنة» بعد أن عاب الترجمات السابقة للكتاب بأنها ليست إلا رواية محضة أو سردا للقصص: «أترجم [الكتاب] لبسط المعنى والكشف عن الإشارات والتأكيد على المعاني بالاستشهاد بالآيات والأخبار والأبيات والأمثال» «نصر الله منشى،1380: المقدمة، 25). فمهمّة المترجم عنده «بسط المعنى» وهذا هو «نوع من إعادة الكتابة»! وحقا ليس عمل منشي ترجمة بحتة ولا دليل أدلّ على هذا إلا أننا سمّيناه منذ القديم «كليله و دمنه نصر الله منشى»!

والأمر لايختلف عند سائر المترجمين: ومثلا يقول الوراويني مبيّناً دافعه الترجمي: «كنتُ أودّ لو أصنع كتابا أبرز فيه براعتي اللغوية والأدبية، وهكذا الحال حتى بحثت في عرائس كتب القدماء التي تخلو من الزخارف والحلى عمّا يصلني إلى قصدي فوجدت «مرزبان نامه» ذلك الكنز المخفي!» (وراويني، 1367: المقدمة). إذن لم تكن الترجمة إلا بيئة خصبة لإبراز البراعات الأدبية واللغوية، «إن المترجمين القدماء لم يكونوا ليعتنوا بالنص الأصلي أبدا وكانوا يأخذوا منه المادة الأصلية يُعِدّ لهم سرحاً لإبراز مواهبهم الأدبية في التصنع والتحلّي والتفنن!» (مشتاق مهر، 1379: 107). جليّ أن المترجمين الفرس أيضا رأوا في النصوص الأصلية نوعا من الضعف الأدبي وسعوا من وراء سدّ هذا الفراغ الأدبي وتصرفوا في النص وتدخلوا فيه بشكل وسيع جدا والجدير بالذكر أن هذه الترجمات أيضا من جملة أنجح ترجمات في العالم الإيراني منذ القدم حتى الآن! يجدر بنا الإشارة إلى أنّ هذا التصرف لم يتسرّب إلى ترجمة النصوص المقدسة أبدا وكانت لترجمة القرآن . على سبيل المثال . قواعد مشخصة معينة تلزم المترجم على رعاية الوفاء التام بالنص الإلهي، يقول الإسفرايني في تاج التراجم ما

ترجمته: «لايحق للمترجم أن يدخلَ في ترجمته ما ليس من القرآن وإذا أورد بعض شيء من عند نفسه فعليه أن يجعله بخط أو لون آخر متمايز عن الخط القرآني حتى لايتوهم البعض أنه من القرآن» (ج1: 8).

والمثال الأخير لترجمة أشعار «ألف ليلة وليلة» بالفارسية، يبدو أن «بهمن ميرزا القاجاري» يعتقد بأن الأبيات العربية لألف ليلة وليلة لاتناسب الفرس وثقافتهم وأمَر الشاعر «ميرزا سروش إصفهاني» بتغيير الأبيات إلى أبيات تناسب الحكايات وحذف الأبيات العربية: «وأمره بإنشاد أبيات من تلقاء نفسه تناسب فضاء القصص الفارسية دون الأبيات العربية» (مقدمة هزار ويک شب). لا تثبت هذه الاستشهادات أكثر مما تثبت اهتمام المترجمين ـ عبر العصور ـ بوظيفة الترجمة ودورها في ثقافة اللغة المقصد، مما يخالف بوضوح ما تعوّدنا عليه من مسائل ترتبط بالوفاء في الترجمة.

الجدير بالذكر أنّ هذا التصرف الثقافي لاينحصر في النصوص الأدبية بل يجتازها إلى نص مقدّس كالقرآن، فمثلا نشاهد كيف أنّ مترجمي القرآن في العصر الساماني (القرن الرابع) قد تصرفوا في الترجمات القرآنية مراعاة لثقافة اللغة المقصد من جهة مراعاة لقدسية الكلام الإلهي حذرا من تهمة التجسيد والتجسيم:

(أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي) (39)

الترجمة: «كه در افكن او را اندر تابوت، پس در افكن او را اندر دريا تا او كند او را دريا واكناره، تافا گيرد او را دشمنى كه هست مرا و دشمنى كه هست او را، و در افكندم بر تو دوستى از نزديك من تا كنند نيكوى ور تو بر **ديدار** من».

أو:

(وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

والترجمة: «و مه خوان با خداى عزّ و جلّ خداى ديگر، كه نيست خداى مگر او. و همه چيزى هلاك گردد مگر **خداى** عزّ و جلّ. و او راست حكم و داورى و سوى اوست بازگشتن همه را»

نعلم أن «ديدار» و«خدا» ليسا معادلين لـ« عين» و«وجه» ولكن المترجمين كانوا يعيشون في زمن تُقطع الرؤوس وتقطّع الأبدان بتهمة التجسيد والتجسيم! ولابدّ لهم أن يتصرفوا في النص الترجمي

حتى لا يُرموا بسهام التجسيم والزندقة! فالأيديولوجية الغالبة تملي عليهم أن يختاروا «ديدار» و«خدا» بدلا عن «چشم» و«صورت».

إذن كل هذه النظريات وكل هذه الأمثلة للترجمة تذهب إلى أن المفاهيم التقليدية للترجمة الوفية ليست إلا معايير نموذجية تغفل عن دور المترجم في عملية الترجمة: «فالمترجم إنسان في البداية والنهاية يتأثر ببيئته ومجتمعه وبالحقبة الزمنية التي يعيش فيها» (مصطفى، 2011م: 306) ولايمكنه أن ينسلخ عن كل المؤثرات التي كوّنت معارفه وسماته.

النتيجة

قد دارست هذه الأوراق البحثية مسألة التصرف الترجمي نظريا وتطبيقيا وحصلت على نتائج كما يلي:

1- اهتمّت نظريات الترجمة بمسألة التصرف بعد أن عالجت علميا مدى أهمية الثقافة في الترجمة، بهذا الشكل يمكن لنا أن نقسّم نظريات الترجمة إلى قسمين هامين: نظريات ما قبل التصرف ونظريات ما بعد التصرف.

2- إذا تورّقنا ترجمات قديمة بين اللغات المختلفة ومنها العربية والفارسية نشاهد أن التصرف الترجمي كان موجودا في أقدم الترجمات مثل ترجمة نصرالله منشي لكليلة ودمنة، إذن ليس التصرف شيئا جديدا من هذا الجانب.

3- ينبعث التصرف الترجمي من مصدرين هامين خارج إطار النص، المصدر الأول هو القدرة والمصدر الثاني هو المنظور الثقافي، بعبارة أخرى يتصرف المترجم في النص المبدأ إما لأنه صاحب اللغة الفضلى بالنسبة للغة المبدأ وإما لمراعاة تناسبات ثقافية للغة المقصد.

المصادر والمراجع

- إيكو، أمبرتو، (2012م)، **أن تقول الشيء نفسه تقريبا**، ترجمة أحمد الصمعي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- باسنيت، سوزان، (2012م)، **دراسات الترجمة**، ترجمه و قدّم له: فؤاد عبدالمطلب، دمشق: منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة.
- بدون مؤلف، (1367)، ترجمه تفسير طبرى، به تصحيح حبيب الله يغمايي، تهران: توس.
- جعلاب، جابر، (2015م)، **حدود التصرف في الترجمة الأدبية**، Les fables de La Fontaine de Jean de La Fontaine بترجمتي محمد عثمان جلال وبشير مفتاح إلى العربية (دراسة تحليلية ونقدية)، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في الترجمة، إشراف: د سعيدة كحيل، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجمهورية الجزائرية الدمقراطية الشعبية.
- دهباشى، مى و مينا، سيرى در زندگى و آثار حكيم خيام نيشابورى، تهران: آوردگاه هنر و انديشه، 1383ش.
- الطسوجي التبريزي، عبداللطيف (1383ش)، ترجمه هزار و يک شب، تهران: هرمس.
- عناني، محمد، (2003م)، **نظرية الترجمة الحديثة**، ط1، القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان.
- غينتسلر، إدوين، (2009م)، **في نظرية الترجمة، اتجاهات معاصرة**، ترجمة د سعد عبد العزيز مصلوح، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- گنتزلر، إدوين، (1380ش)، **نظريه‌هاى ترجمه در عصر حاضر**، ترجمه على صلح جو، تهران: هرمس.
- ماندى، جرمى، (1391ش)، **معرفى مطالعات ترجمه**، ترجمه على بهرامى و زينب تاجيك، چ3، ويراست سوم، تهران: رهنما.
- مصطفى، حسام الدين، (2011م)، **أسس وقواعد صنعة الترجمة**، كتاب إنترنتي:
- منشي، أبو المعالى، نصرالله، (1380ش)، **ترجمه كليله و دمنه**، تصحيح و توضيح: مجتبى مينوي، تهران: أمير كبير.
- نيدا، يوجين، (1976م)، **نحو علم للترجمة**، ترجمة ماجد نجار، ط1، بغداد: مطبوعات وزارة الإعلام.
- نيومارك، بيتر، (2006م)، **الجامع في الترجمة**، ترجمة وإعداد: أ.د حسن غزالة، ط1، بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- هدايت، صادق، (1325ش)، **ترانه‌هاى خيام**، تهران: پرستو.
- هاوس، جوليان، (2010م)، **مقدمه‌اى بر مطالعات زبان و ترجمه**، مترجم على بهرامى، تهران: رهنما.
- وراويني، سعد الدين، (1367ش)، **مرزبان نامه**، تصحيح: محمد روشن، تهران: نشر نو.
- فرغل، محمد، (2015م)، «التصرف الأيديولوجي في الترجمة مصطلحاً ومفهوماً»، **مجلة نقد وتنوير**، العدد3، صص 144-170.
- قطاف تمام، عبدالكريم، «أمانة الترجمة بين النظرية والتطبيق، آراء ومفاهيم»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية**، العدد 7، صص 1-20.

- مشتاق مهر، رحمان، (1379ش)، «تلقی قدما از ترجمه ادبی»، **مجله زبان و ادب**، ش 11، صص 103-112.
- نجومیان، امیر علی، (1383ش)، «ترجمه از دیدگاه والتر بنیامین و ژاك دریدا»، ***کتاب ماه ادبیات و فلسفه***، ش 78، فروردین، صص 42-49.

المصادر الإنكليزية:

Farahzan, Farzaneh, **Strategies of Appropriation: Khayyam and Rumi**.Translation Studies, vol 4,Number 15, 2006

Hermans. Theo (1985). **The Manipulation of Literature**: Studies in Literary translation, translation studies and new paradigm, London and Sydney: Rutledge pp 7-15.

Lefever. Andre, (1992), **Translation, Rewriting, and the Manilulation of Literary Fame**, London: Routledge.

[1] استخدم «سعد مصلوح» في ترجمته لكتاب «إدوين غينتسلر» مصطلح «التقويضية» بدلا عما تعودت عليه العرب فهو «التفكيكية» الأكثر استعمالا.